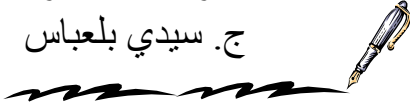


التعليمية اللغوية في المثلثات العربية بين الاستقراء والتحليل تطبيقات من مثلث قطرب

د. رفاص سميرة

ج. سيدي بلعباس



اللغة ظاهرة اجتماعية فكرية، تجتمع فيها عدة خصائص وميزات، كالاكتساب والاستعمال، والتلقي والإرسال، يتمثل ذلك كله في ملكات وقدرات ومهارات من أجل تحقيق أهداف وإدراك غايات.

ومنذ أن خلق الله الإنسان علمه البيان. والبيان إيضاح وإفصاح عما تكنه الصور وتخفيه العقول، والخفاء قد يكون عن قصد متمثل في القدرة على الإخفاء أو عن عجز متمثل في غياب قدرة الاكتساب. ومن ثمة كان من مقاييس الشخصية الإنسانية القدرة على التفكير والتعبير والتدبير. وكان المرء مخبوءاً تحت لسانه.

الإنسان كائن حي معبر ناطق، ومن النطق جاء المنطق، لقوله تعالى: (علمنا منطق الطير)¹ ومن أجل ترقية التعبير



والتفكير معاً، كان التعلم والتعليم، والتعليم أسمى المهن وأرقى المطالب، ومن ذلك قال الرسول عليه السلام (إنما بعثت معلماً) وأضاف و"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فربط بين التعليم والأخلاق وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت.

ومن هذه النظرة لعموم القدرات والمكتسبات ومن هذا المنظور للتعليم والغايات بذل الإنسان جهوداً في تحقيقها وتطويرها وتسهيلها، منذ أن خلقه الله وأدرك محيطه وأدرك حاجته للتواصل مع غيره والتعبير عن أفكاره.

ومن هذه المنطلقات، سارت فكرة التعلم والاكْتساب كل مخلوق على اختلاف الوسائل وتفاوت الأهداف، وفي تاريخ الإنسانية معالم من خلق الإنسان ومواقف من مواقفه تنبئ على ما بذله من جهد في التعلم والتعليم، عبر الزمان والمكان. وفي التاريخ العربي والعربية معالم رائدة في مجال التعليم، وقد واكبه مصطلح التعليم، ثم اشتقت منه مفاهيم

ومصطلحات كان آخرها التعليمية، ثم ما تفرع عنها.

ومما يوجب الانتباه أن العربية على اختلاف مراحلها في التكوين والتطوير والصيانة والتحصيل، كان الناطق بها يسعى إلى ترقيتها، وكانت هي لينة طيعة مطيعة في التعامل مع ما يحيط بها في محيطها وما ينقل إليها من خارج محيطها؛ مما دعاها إلى تقبل الوارد إليها بما يحمله من خلفيات، فكانت اللغة بعامة في حاجة إلى تقنيات مختلفة للتلقي واكتساب الوارد من جهة والإلقاء والتثبيت من جهة أخرى.

وكان للإنسان العربي من القدرات والكفاءات ما يؤهله لذلك، وما نعبر به نحن الآن، ويعد جديداً أو متجدداً؛ هو ما قام به العربي من قبل، ويثبته تاريخ البحث اللغوي، ومن أشهر ذلك ما أنجزه أبو الأسود الدؤلي، في تعامله مع الصوائت العربية التي ما زالت تتلى على ما قاله فيها وما وصفها به فتح وكسر

وضم وصفا لأوضاع الشفتين ونصب وخفض ورفع لأوضاع اللسان.

وفي كل ذلك نسجل له سابقة تربوية تتمثل في قوله لكتابه (إذا رأيتني فتحت فمي، بالحرف ضع نقطة فوقه وإذا رأيتني..)² والمهم من هذا النص هو اتباعه ما يعرف حديثا بالطريقة السمعية البصرية، فأبو الأسود كان ينطق وكتابه يسمع ويرى ويضع العلامة في موضعها. وهي آخر ما توصل إليه علم البيداغوجية ونماه وزكاه، لما كان من عند غير العرب. وتعد هذه الرؤية منطلقا لما سيقام عليها وما تحتاجه من تقنيات لتثبيتها وتطويرها، فأثارت انتباهنا تقنية عربية خالصة في مجال الاكتساب اللغوي قام بها أبو محمد بن المستنير المدعو قطرب.

لمؤرخي اللغة أحاديث مطولة في المثلثات من حيث المفهوم والأعمال والأعلام وعرفوا المثلث من جانبه اللغوي والاصطلاحي ويفهم من تعريفهم اللغوي أنه تنظيم متميز تتعاقب فيه الصوامت أو

الصوائت أوهما معا. ومن هنا يصبح تعريفه ثلاثي الأبعاد (صوائت أو صوامت أو هما معا) وتلتقي تعاريف اللغويين في أن المثلث ما كانت له ثلاثة أبعاد³ وفيه قال البطليوسي: (المثلث ما اتفقت أوزانه، وتعادلت أقسامه، ولم يختلف إلا بحركة فائه فقط، أو بحركة عينه فقط، أو كانت فيه ضمتان تقابلان فتحتين وكسرتين)⁴ ونلتقي مع هذه النظرة في ما قدمناه من قبل من أن المثلث ثلاثي الأبعاد.

ولكن ما ننبه إليه أن مصطلح المثلث شاع في مجال تثليث صامت فاء الصيغة الإفرادية غير الحديثة. وإلا فهناك الثنائيات والمثلثات من الصوائت في مختلف موقعيات الصيغة الإفرادية الاسمية والفعلية والوصفية في الأفراد والتركيب؛ وهو تثليث بداية الصيغة ووسطها ونهايتها.

وأن إنتاج المثلثات كمادة استعمال قديم قدم العربية، ولكن تنظيمه ونقله من مجال حرية التعبير، إلى مجال تنظيم



التعليم، هو ما يهمننا. وأن التأليف في المثلثات بمفهومها التعليمي كثير، وشرح المثلثات كثر. ولكن التعريف بهم والحديث عنهم لم يرق إلى الحديث عن المثلث الهندي، والإلياذة اليونانية، والشاهنامة الفارسية.

وأشهر المثلثات العربية مثلث قطرب (ت، 206 هج) ومثلث البطليوسي (ت 521 هج) ومثلث حسن قويدر (ت، 662 هج) وفي الجميع منهج وطريقة تعليم متميزة، هي ما نسارع الخطى للحديث عنها.

ميزة المثلث التعليمية

التعليم في مفهومه العام هو إحداث تغيير مستمر في الكائن الحي، ويحصل ذلك باكتساب الملكات وبتنمية القدرات والكفاءات والمهارات، وقد تفتن القدماء إلى إقامة الملكات على أساس مرتكزات ثابتة في مقدمات تعد تحصيلا أوليا وإعدادا تمهيديا لما سيقام عليها فكانت المتون.

وكان التعليم بالمتون هو السائد وحفظ متن المادة هو أساس تحصيل تفصيلها فكان المتن للتأسيس، وكان الشرح للتوضيح، وكانت الحواشي للتفصيل والتوسع. وكان المتن نوعان من حيث الشكل منظوم ومنثور. والمنظوم أجود لسهولة حفظه.

وكانت المثلثات متون حفظ، وتخزين للمعلومات. ومن ثمة، كانت سجلا للمعطيات الأساسية، وبنكا معلوماتيا بالمفهوم الحديث. ثم جاءت شروحا لتوزيع مخزوناتها على أماكنها في المستويات اللغوية اللسانية. وفي ذلك كان الشرح والتوسيع والتوضيح والتعليق.

كان هذا حال المتن بعامة ولا يزال. ولكن المثلث يفوق غيره من المتون المنظومة في سعة مادته. وكثرة مكتسباته، فالذي يحفظ متنا من متون العلوم الإنسانية - وحتى التجريدية أحيانا- يقيم على المتن شرحا موسعا لمحتوياته، وهي كثيرة متنوعة، وكان منهج التعليم في القديم موسوعيا، لا

يتوقف شرح المتن عند معنى المفردة وما تحمله من معنى تخصصي، وأقل ما يقدمه المتن أن يكون لكل مفردة معنى تقعيديا، يحتاج إلى شرح جديد. ومن ثمة كانت كتب التعليم القديمة وما زالت، تحتوي كل صفحة فيها على متن وشرح وحاشية، وعلى الكل تعاليق.

ثم إن للمثلث خاصية فوق ما سبق وهي ما يفوق به المثلث غيره أن لكل مفردة ثلاثة معانٍ مختلفة الاحتمالات، يوحى بعضها ببعض وهو ما يعرف في اللسانيات الحديثة (بالتعامل النص) ومفاد هذا، أن المتعلم من المثلث كلما حفظ مفردة اكتسب منها ثلاثة معانٍ. ولناخذ على سبيل المثال مفردة (سلم وهي مفردة مثلثة الجذر ومثلثة المعنى باعتبار تنوعات أو صامت فيها وهو (السين) وتعامل معها قطرب من مصدرها. وفيها قال: بدا وحيًا بالسَّلام رمى عدولي بالسَّلام أشار لي بالسَّلام بكفه المخضب

ثلاث حركات هي علامات البناء والإعراب، عند اللغويين والنحاة، استقرى قطرب

توظيفها في لغات العرب، ثم جمعها جمعا متآلفا، في مفردة يسهل فهمها وحفظها وتوظيفها، وجاء مصدرا جامعا بين الاسم والفعل ومتميزا عنها.

هذا منطلق التوضيح وخلفه خلفيات، منها أن السلام مفتاح الإسلام، والسلام مطلب الإسلام والسلام أمن المسلم منه ومن غيره. جاء فيها ذكر التحية ولها خلفيات وفيها الحجارة ولها إشارات، ومنها معركة الحرة التاريخية، وفيها حديث الرسول عليه السلام، وفيها إشارة علم طبيعي هو العروق التي في جسم الإنسان. هذه وقفة عند معنى المفردة اللغوي المعجمي، وهو المبتغى من حفظ المثلث.

وهناك ما يمكن الوقوف عنده بعد هذا وهو أن لمفردة (مثلث) أهمية في الدراسة اللغوية من بعد قطرب. وما نقف عنده أن قطرب وظف المفردة المثلثة على ما سمعها في نسقها، ولم يعمل فكره في تقلباتها الاشتقاقية عند من جاؤوا من بعده والتي قد تكون مستقاة من فكرة قطرب.



أصحاب الاشتقاق والتقلبات كابن السراج وابن جنى، أخذوا المفردة نفسها. ولكنهم لم يتوقفوا عند الصامت الأول منها، وإنما لعبوا بجميع الصوائت، بتقليب مواقعها، ومن ثم يكون منهج قطرب استبدالياً بالمفهوم اللساني الحديث.

وما نبتغي ملاحظته ومراعاته في هذه الطريقة، هو هل كانت مفردات المثلث عملية وظيفية، أم كانت من المهمات ويعد حفظها مجرد إعادة تخزين لمخزون أصلاً. أي ما هي الفوائد العملية من حفظ مفردات المثلث والجواب عن هذا التساؤل ينطلق من ملاحظة مفردات المثلث نفسها. ولنقف عند ما سقناه منها، وهي مفردة (السلام) بتثليث السين.

لهذه المفردة ست صيغ نظرية عند تقلبها وهي: ملس مسل. ولمس ولسم، ووسلم والشائع منها هو ملس من الدور الأول، ولمس من الدور الثاني، ووسلم من الدور الثالث. وبإعادة الترتيب تكون صيغة سلم هي الكثيرة الشيوع من

الباقيات. كما يلاحظ أن في كل دور مفردة مفتاحية له، ومفتاح الجميع السلام. وهو ما أشرنا إليه من قبل.

أنواع التثليث

لقد تعرضت من قبل في إيجاز إلى مفهوم التثليث في اللغة، ونعود إليه من جديد لنقف عند بعض من أنواعه لكثرتها، ومن المتعارف عليه أن التثليث قد يكون في صوامت بداية الصيغة المفردة، وهذا هو مجال المثلثات، وقد يكون في وسطها، وهذا مجال الصرف وحديث الصرفيين، وقد يكون في آخر المفردة، وهذا موضوع النحو والنحويين.

ولما كان موضوعنا هو المثلثات الوصفية، غير الصرفية والنحوية؛ نعود إليها لتنفيذ منها، ونقول هي أنواع أيضا منها المثلثات المتفقة المعنى، وهي عبارة عن تلوينات صوتية غير دلالية، في مثل (كمل بتثليث الميم)⁵ " هذا رأي البطلوسي وقوله، ونرى أنه ليس من المثلثات اللغوية، لأن التثليث المقصود المتفق عليه هو ما كان في بداية



الصيغة. أما ما حصل في وسطها فهو من حديث الصرفيين على ما أشرنا إليه من قبل؛ ويعرف بالترادف اللفظي.

وأورد البطليوسي نوعا آخر سماه المثلث المختلف المعاني، ومن أمثلته (العرب) بتثليث وسط الصيغة، ونقول هذا ليس من التثليث اللغوي المتفق عليه أيضا، وإنما هو من اختصاص الصرفيين وهو عندهم نوع من التضاد.

وهناك أنواع أخرى من التثليث عند الطليوسي سقنا بعضا منها، ونقف دون الباقيات، ومنه يظهر أن الذي فهم التثليث اللغوي غير الصرفي، ومثل له هو قطرب.

ولكن في جميع ما قيل عن المثلثات وفيها يعد مفيدا إذا روعي فيه شرط واحد وهو مجال الاستعمال، ذلك أن المثلثات مفردات نظمت من أجل حفظها والعمل بها، ومن ثمة فهي معجم منظوم. ولكن إن كانت ميدان نظم للحفظ دون التوظيف، فهي عبء جديد يحمله المتعلم، وتعد تخزينا لمخزون ليس نافعا في أصله.

ويظهر من حديث ما سبق وهو خلاصة ما اطلعنا عليه، أن المثلثات نشأت في شكل منظومة من أجل التعليم، فكانت متنا في زمن المتون، وكانت استقرائية المنحى، فهي مجموعة من المفردات المسموعة غير المعللة في أصلها؛ إلا ما ندر. وتكمن قيمتها في أنها تعرض مجموعة من المفردات المتماثلة، حتى إن كانت غير وظيفية فهي توسع أفق المتعلم، وتمكنه من التحكم في ناصية التعبير والتوسع فيه.

ومن هنا، يعد المثلث اللغوي نمطا من المتون المنظومة، ومعجما لغويا لفظيا متفردا بخصائصه وميزاته. وحفظ مفرداته أقل ما تعطيه لحافظها هو حفظ لسانه من الخطأ في التعبير، وحفظ فكره من الخطأ في التفكير. وتغني بسعتها عن الاستيراد والتوليد.

تتليث الصيغة عند قطرب

تحتوي الأرجوزة على ثلاثين صيغة وصفية هي: الغمر، السلام، الكلام، الحرة، الحلم، السبت، السهام، الدعوة، الشرب،



الخرق، اللحاء الملاء، الشكل، صرّه، الكلا
القسط، العرف، الجد، الجوار، أمّه،
الحمام، لمة، المسك، الحجر، السقط،
الرّقاق، القمة الصّل، الطلا.

ووردت صيغة حديثه واحدة هي (عمرت)
في قوله :

فداره قد عمّرت
ونفسه قد عمّرت
وأرضه قد عمّرت
من بعد رسم خرب"6"

لقد قام قطرب بتثليث كل صيغة
إفرادية، فكان مجموع الصوائت المتعاقبة
عليها ثلاثة، والدلالات المترتبة عنها
ثلاثة أيضا. وأمام هذا التنوع والتشعب،
نقف مستفسرين ومتسائلين عن علة هذا
التنوع الدلالي والصوتي. هل كان تنوعا
مقننا ومعللا، تحكمه ضوابط لغوية
وقوانين صوتية أم أن الحاجة إلى
التعبير والتواصل هي التي خلقت هذا
التناوب؟

وفي غياب التعليل والتحليل لهذه
الظواهر الصوتية، حاولنا جاهدين تعليل

هذه التلوينات الصوتية ومعها الدلالية ، معتمدين في ذلك على الخصائص الصوتية للصوائت والصوامت معا ، لعلها تكشف لنا عن ملامح التأثير والتأثير في الصيغة الإفرادية .

لقد انتقيت مجموعة من المفردات لتكون محل دراسة وتحليل وتعليل إن أمكن ذلك . وهي : (السلام - الكلام - الحمام - الجد - الحرة) ، وكان الانتقاء مبنيا على خلفيات دينية واجتماعية وثقافية . وفي السلام قال تعالى : (تحيتهم فيها سلام) "7" ومن أسمائه عز وجل السلام .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (أجذك ما لعينيك لا تنام ؟ كأن جفونها فيها كلام) والكلام الجروح .

وفي الحرة قال الشاعر :

فلا تأمنن الدهر كيد ابن حُرّة *
أبدا ما عشت منه علي وجد

والجد عظمة ، وفيه قال سبحانه : (وإنه تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) "8" ، ومنه قولنا في الصلاة : (تبارك اسمك وتعالى جدك)



ويكون الحمام آخر المفردات، وقال فيه الشاعر:

نأمن الوحش فيه والطيح حتى *
ينفر المهر في وجوه الحمام

مستويات الدراسة مع الصامت

يتحقق الصامت بوجود عنصرين أساسين هما المخرج والصفة؛ لأن المخرج يحقق وجود الصوت، والصفة تلونه. ونحن في تعاملنا مع هذه المفردات، نعتمد على هذين العاملين الأساسيين في استبطان الدلالة واستنباطها.

يغلب على بدايات هذه المجموعة العمق (الحمام، الحرة)، بالنظر إلى موقع أصواتها المتمثل في الحلق. لكنه عمق فيه امتداد وليونة، وليس انغلاقاً وتراجعا مما سيتضح في موضعه. وكذلك (الكلام) المبدوء بالكاف، وهي لهوية، وللهاء موقع خاص في الجهاز النطقي، لأنها ملتقى التجايف، ومنها تنطلق بقية الأصوات وتتوزع في القناة الصوتية.

وبإسقاط هذه النظرة على هذه اللفظة نقول، إن الكلام هو الوسيلة التي تعبر عن مواقفنا، وتحدد نظراتنا وتوجهاتنا ومصيرنا، وهو المسئول عن مدى تواصلنا مع غيرنا، متفوقا بذلك على جميع وسائل التعبير، من إشارات وإيماءات ورموز، ويعتبر الكلام الوسيلة الأسرع والأمثل في مخاطبة العقل، والفكر، وكذلك القلب. وفي ذلك قالت العرب: (المرء بأصغريه قلبه ولسانه).

وفي محاولة لاستنطاق صوت (الحاء) في اللفظتين السابقتين نقول: الحاء صوت مهموس رخو، وفيه بحة وحرقة. قال الخليل: (ولولا بحة في الحاء لاشتبهت العين)⁹. وهو بهمسه يتسلل إلى عمق الإنسان وباطنه في هدوء ولين، فيصيب إحساسه، ويخرجه من سكونه وثباته؛ لأن الحرية وبكل ما تحمله من معاني الارتخاء والسعادة والانطلاق، إلا أنها لا تخلو من معاني الشقاء والمعاناة والتضحيات.

وكذلك (الحمام)، فهو فضلا عن كونه حيوانا، إلا أنه يمثل رمزا للسلام



والتحرر والأمان. ولسنا نفهم لماذا عبر عن الموت، على الرغم من أن الحياة مبنوثة في حركة هذا الطائر أولاً، وما يرمز إليه ثانياً.

ومثله السلام، وهو التحية بين الناس، ومن دلالاته أيضاً، السلم والطمأنينة. وفي محاولة لإقامة علاقة دلالية بين هذه الصيغ نقول، إن السلام له عدة أساليب، أولها التحية والكلام، وإن تعذر ذلك نلجأ إلى الرمز المتمثل هنا في لفظ (الحمام)، وإن لم يتحقق نستعمل الشدة المعبر عنها بلفظ (الحجارة)، جادين ومجتهدين في نيل الحرية وتحقيق السلام. ولعل ذلك ما تجسد في نهايات هذه الصيغ التي تجسدت في صوت الميم المجهور الأغن، وهو من الأصوات الرنانة لغنته وجهره. ومن صفات الغنة الترجيع، وكذلك الميم، وهو ترجيع يراد منه التركيز و التأكيد والحرص.

ومما سجلناه أيضاً، غلبة الجهر على جميع الصيغ، مع أن بداياتها مهموسة، وهذا الانتقال من الهمس إلى الجهر ينم عن قوة خفية ستعلن وتفجر، وليس الهمس



هنا علامة على الضعف والاستسلام ، وإنما هو تحذير وتحذير من أمر خطير ، فكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . والأمور تقدر بخواتمها .



المفرد ا ت/ الصوائت	فتحة	كسرة	ضمة
السلام	التحية	الحجارة	العروق
الكلام	النطق	الجراح	الحجارة
الحمام	الطير	الموت	اسم رجل
الجد	أبو الأب/ الأم . وعظمة الله عز وجل .	الاجتهاد	البئر القديمة
الحررة	الحجارة	العطش الشديد	الحررة من النساء
عمر	إذا خربت المنازل ثم سكنت	طول العمر	عمرت الأرض والقرى

الصائت

يقر اللغويون أن الفتحة حيادية، ومن معاني الكسرة التغير والترقيق والرقعة والدقة، أما الضمة فهي مفخمة مستعلية، ومن معانيها الثبات والخشونة. وقبل أن

نسقط دلالة الصوائت على المعنى العام للمفردات، ندرج هذا الجدول التوضيحي.

من وحي الصوائت

لقد تعاقبت الصوائت على أوائل الصوامت من كل صيغة، فتبدلت الدلالة فيها وتنوعت، فمنها ما كان مناسباً ومنسجماً - في نظرنا - مع دلالة الصائت وإيحائه، ومنها ما كان مناقضاً له مبتعداً عنه، مما جعلنا عاجزين على التعليق والتعليل، مكتفين بالقول: (هكذا نطقت العرب).

ومن أمثلة الانسجام، صيغة (الحرية) التي بدت منسجمة مع صوائتها دلالياً، حيث أن المحروم من الحرية مثل المحروم من الماء (العطش الشديد)، وهذه الحال حُرِكت بالكسر، ومن معاني الكسر الانكسار. بينما وردت دلالة (الحرية من النساء) مضمومة، ومن معاني الضمة الاستعلاء والعظمة والرفعة.



وإذا كان السلام بالكسر يعني الحجارة، ولو كان مضموماً كان أنسب مقابلة له بخشونة الضمة. بينما يكون الكسر للعرق، لما فيه من رقة وعمق ودقة في رسمه على الكف. أما الكلام فهو النطق الذي يجرح ويصيب مثل الحجارة، فيتحول إلى كلام.

وإذا تأملنا المعاني التي جاء بها صائت الفتحة، نجد أنها عبرت عن المفهوم العام والأصلي للمفردة، بينما كان التنوع في صائتي الكسرة والضمة. وكنا نأمل من هذه الالتفاتة أن يكون للتحليل الصوتي بعده التعليلي لهذه الظواهر اللغوية، لكن التحليل أثبت أن هذه المثلثات مجالها التعليم عن طريق التصنيف في المعاجم، وذلك حفاظاً على سلامة النطق، وحفظ اللسان العربي من اللحن واللبس والغموض، الذي قد يقع فيه دارسو اللغة العربية، وحسبنا في هذه المقالة أننا تعاملنا مع نص تراثي، حي بمفرداته، وغني بأصواته وثرى بدلالاته.

الهوامش:

- 1 - الآية 16 من سورة النمل.
- 2 - أبو عمرو عثمان الداني، المحكم في نقط المصاحف ص، 12 باختصار تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، مط، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط، 2004، م1.
- 3 - ابن السيد البطليوسي، المثلث ص، 47 تحقيق ودراسة، صلاح مهدي الفرطوسي.
- 4 - نفسه، ص، 64.
- 5 - المثلث لابن السيد البطليوسي ج1، ص، 109.
- 6 - رضا السويسي، مثلثات قطرب، تج ودراسة ألسنية، 64، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس 1978.
- 7 - الآية 10 من سورة يونس.
- 8 - الآية 03 من سورة الجن.
- 9 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، 64/1، تج مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس.